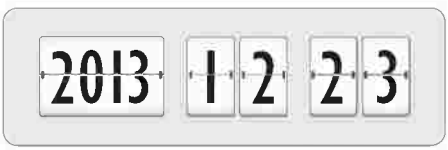

واصلت مشكلات هيلاري البيت أبيضية تناميها كما شرحت لي في الجلسة التالية قائلة من البداية: ما جعلني أصاب باليأس أن انتحار فنس فوستر سرعان ما أصبح قنبلة سياسية موقوتة؛ ظلت وسائل الإعلام دائبة على سوق حشد من نظريات المؤامرة، على إطلاق التخمينات حول وجود خيانة، بل وحتى على الانحدار إلى مستوى الإسفاف بالكلام عن خطط قتل مزعومة، لم يخطر ببال أي من أولئك الإعلاميين على ما يبدو أن الحياة تغدو أحيانًا بالغة القسوة إلى درجة تجعل المرء رافضًا مواصلتها، ذلك شعور يراودني أحيانًا حين يتزاحم العالم كله ضدي.

نظرت إليها برعب.

قالت: لا تقلقي دكتورة؛ لن أفعل ذلك بتشلسي.

صدقتها وغرقت في بحر من الطمأنينة.

تابعت هيلاري: بعد ستة أيام من موت فنس عثر مستخدمو البيت الأبيض على رسالة الانتحار.

ثم أضافت بحزن ماسحة دموعها: كان فنس محقًّا؛ ليست الحياة في واشنطن إلا حفلة قنص ثعالب كبرى، ولست أنا إلا الثعلب الثاني، فيما كان يتعين على البلد كله أن يعلن الحداد ويلتزم به حزنًا على فقدان موظف عام مهم مثل جون فيتزجيرالد كندي، جي أف كي (JFK)، كان الناس عمليًّا ميالين إلى تصديق رواية أننا خططنا للمأساة؛ جزءًا من محاولة للتحول إلى حكام دكتاتوريين للولايات المتحدة، هل هم مازحون؟ بل العطوف، صاحب القلب الدافئ، دكتاتور؟! ما هذا الدرك من اللاواقعية؟ غير أن الناس مازالوا يصدقون تلك الخرافة.

تحملنا؛ بل وأنا الإساءات اللفظية أشهرًا، كانت أثقل وطأة مما عانى نكسون، تعكر مزاجي كثيرًا إلى درجة أننا أصبحنا ندفع بعضنا إلى خارج السرير صباحًا، وكما هي الحال مع جل الأمور، خفَّ الضجيج تدريجيًّا إلى حد العودة إلى حياة بيت أبيض طبيعية، إذا كان شيء كهذا موجودًا. برنامج بل الداخلي كان يسير على مايرام، وأرقام استطلاعات الرأي ارتفعت وبدأت تشير إلى احتمال قدرتنا على انتشال الرئاسة من هجمات وسائل الإعلام والجمهوريين الخبيثة.

سأذكرك بإيجاز ببضعة أمور قليلة أنجزناها في تلك الأعوام الأولى، من شأن جزء كبير منها أن يكون مألوفًا بالنسبة إليك؛ وضع بل توقيعه على قانون اقترحه تضمن إلزام الشركات التي يعمل فيها أكثر من خمسين مستخدمًا بمنح العاملين إجازة تصل إلى اثني عشر أسبوعًا بلا أجر في السنة لمواكبة مشكلاتهم العائلية. أدرك بل مدى أهمية قدرتي على البقاء في البيت مدة أربعة أشهر بعد إنجاب تشلسي.

استحدث برنامج خدمة قومية عرف باسم أمريكورز قائم على تجنيد راشدين لخدمة جماعية مكثفة من أجل مساعدة الآخرين وتلبية حاجات

حساسة في الجماعة؛ فبل يتمتع بقلب كبير، وما استحداث الأمريكورز إلا برهان إضافيّ على ذلك.

هو يعرف أيضًا كيف يفكر من منطلق مبالغ هائلة من المال، على الرغم من أنه لم يسبق له قط أن أبدى أي قابلية لموازنة دفتر شيكاتنا، عمليًّا لا يعني المال شيئًا بالنسبة إلى بل، هو لا يبالي بامتلاكه وليس ضد كسبي له (المرة الوحيدة التي لم أعمل فيها منذ بلوغي الثالثة عشرة من العمر هي مدة الأعوام الثمانية التي أمضيتها في البيت الأبيض) غير أنه سعيد طوال بقائه متوفرًا على ما يكفي من المال لشراء الكتب، وحضور الأفلام السينمائية، والخروج وتناول وجبات العشاء كلما خطر بباله، والسفر، أما أنا- بالمقابل- فأشبه أبي، وأحس بقدر أكبر من الأمان حين يكون رصيدنا البنكي دسمًا، وفي وقت مبكر من حياتنا الزوجية تعلمت درس أن امتلاكنا لأي حساب مصرفي بالمطلق مشروط بمبادرتي أنا بالذات إلى ملئه.

إبان سنة بوش المالية الأخيرة كان العجز العام قد بلغ (290) مليارًا من الدولارات، نجح بل في اختزال الإنفاق الحكومي في خمس سنوات بمبلغ (255) مليارًا من الدولارات، وزاد الضرائب على المداخيل العالية بمبلغ (241) مليارًا من الدولارات، وفي ظل رئاسته انخفض العجز السنوي بحدة حتى تلاشى كليًّا في عام 1998م، نجح بل في موازنة الميزانية للمرة الأولى منذ عام 1969م!

كذلك عمل على توسيع اعتماد ضرائب الدخل المكتسب، ما وفر دخلًا بملايين الدولارات للعائلات ذوات المداخيل التي تقل عن (30) ألفًا من الدولارات.

وفيما يخص الشؤون الخارجية، حاول بل اجتراح السلام بين فئات وطوائف دينية وعرقية متنافسة في الشرق الأوسط وإيرلندا الشمالية؛ نجحت تدخلاته في وضع حد للصراع الديني في إيرلندا، كما في إبرام اتفاقية بين إسرائيل والأردن لإنهاء حالة الحرب الدائمة بينهما، وحين انهار البيزو المكسيكي في عام

1995م مهددًا بإخفاق الاقتصاد المكسيكي، سارع بل إلى اجتراح حزمة قروض بمبلغ (20) مليارًا من الدولارات لاستعادة ثقة العالم بالمكسيك، سُددت قبل موعدها بثلاث سنوات.

لم يكن اهتمام بل الرئيس بالسياسة الخارجية متمثلًا بالتدخل العسكري، ما يستدعي شعور الشعب الأمريكي بالامتنان، بل بالتحسينات الإستراتيجية على الصعيدين التجاري والاقتصادي؛ نجح في إنجاز اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية، التي اختزلت الرسوم الجمركية، وعمل من أجل التوصل إلى اتفاق تجاري عالمي عرف باسم الاتفاقية العامة للتعرفات والتجارة. رغم احتمال انحيازي ورغم إثارته لغضبي في بعض الأوقات، فإن بل كلنتون بنظري أحد أعظم رؤساء الجمهورية الذين شرفوا المكتب البيضاوي.

وكما تعلمين كان بل أحد أكثر حكام آركنسو إنتاجًا، واستطاع- بمساعدتي- أن يحقق سلسلة طويلة من الإصلاحات في التعليم العام، وولايته الطويلة اختُتمت بحقبة مطولة زاخرة بخلق فرص العمل والنمو الاقتصادي، وبوصفه رئيسًا للجمهورية نجح في تحسين الأحوال الاقتصادية للعائلات العاملة ذوات المداخيل المتدنية بمبلغ (20) مليارًا من الدولارات في السنة، موفرًا الضمان الصحي لأطفال تلك العائلات، ومقدمًا اعتمادات ضريبية لتغطية نفقات العمل والدراسة الجامعية. رئاسة بل كانت الحقبة الأطول للتنمية الاقتصادية المستدامة في تاريخ الأمة، بما في ذلك سنوات فائض الموازنة الاتحادية الأربع المتعاقبة. كان رئيسًا على قمة تفوق الولايات المتحدة في العالم، أمر لم يكن صدفة، ومن الممكن تبرير استمتاعه شخصيًّا بنعمة الإعجاب الكوكبي غير المسبوق.

لم يسبق للبلد أن عاش النعمة التي عاشها إبان رئاسة بل كلنتون. ولكن، ما الشيء الذي يخطر ببال مواطني الولايات المتحدة حين يُذكر اسمه أولًا؟ إنه موضوع مونيكا لوينسكي!

مهما كانت نزعاته الطفولية، فإن بل كلنتون كان رئيس جمهورية عظيمًا، أحيانًا لا ينتبه الناس إلى ما هم فيه من خير حين يكونون ميسورين، من المؤسف حقًّا أن الرئيس الذي خلفه لم يحذ حذوه، فلو كان جورج دبليو بوش قد فعل لما انزلق بلدنا إلى المستنقع الذي غرق فيه لاحقًا.

حتى أنا دائمة الإعجاب ببل كلنتون، لم أدرك أنه كان قد أنجز هذه المآثر كلها في رئاسته، بحت بهذا لهيلاري قائلة: يجب أن تكوني استثنائية الاعتزاز بزوجك. أشرقت ولمعت عيناها وأكدت: يا إلهي! أنا شديدة الاعتزاز، على الدوام كنت على يقين بأن في داخله رغبة حقيقية في أن يكون رئيسًا عظيمًا، ذلك هو ما جعلني أقترن به زواجًا، أخشى أن يمر قرن كامل قبل أن يتمكن شعب الولايات المتحدة من الارتقاء إلى مستوى رأيي به.

لم يسعني إلا أن أتفق معها آملة أن تكون قد بالغت فيما يخص تقديرها للمدة الزمنية المطلوبة للوصول إلى مستوى رأيها، وهي تنهض عن أريكتها قالت: حسنًا دكتورة، تقديري أنه حان وقت الخروج من علبة الصابون!